

كلمة الدكتورة مارغريت تشان، المدير العام أمام جمعية الصحة العالمية الثانية والستين

سيدي الرئيس، حضرات الوزراء، أصحاب السعادة، حضرات المندوبين المحترمين، الدكتور مهلر، السيدات والسادة،

لقد أصبح العالم، في المتوسط، وعلى مدى العقود الثلاثة الماضية، يرفل في الثروة، كما تمتع الناس، في المتوسط أيضاً، بموفور الصحة كما طالت أعمارهم.

غير أن هذه الاتجاهات المشجعة تخفي حقيقة موجعة قاسية. ذلك أن الفوارق من حيث مستويات الدخل والفرص المتاحة والحالة الصحية، والفوارق بين البلدان وداخلها هي أعظم مما كانت في أي زمن من الأزمان في التاريخ الحديث.

إن عالمنا مختل التوازن بشكل خطير ولاسيما عندما يتعلق الأمر بالمسائل الصحية فالاتجاه الهبوطي الذي يسجله الاقتصاد في الوقت الحاضر سيؤدي إلى تراجع الثروة وانتكاس الصحة، غير أن آثار هذا الاتجاه ستكون على أشدها في العالم النامي.

ولقد اتسم المجتمع البشري، دائماً وأبداً، بالحيث والجور. وعرف التاريخ، على اتساعه، الكثير من المفسدين للصوص والكثير من المحسنين الشرفاء. غير أن الفارق اليوم هو أن الجور والحيث، ولاسيما في مجال الرعاية الصحية، أصبحت من المهلكات.

ويمكن للعالم أن يبدي امتنانه لما أقرته قيادات ١٨٩ بلداً عندما وافقت على إعلان الألفية ومراميه كمسؤولية مشتركة. ذلك أن تلك المرامي تعدّ طريقة بالغة الأهمية يمكن من خلالها الأخذ بقسط أوفر من العدالة في هذا العالم.

ويمكن لجميع سكان العالم، حيثما كانوا، أن يعربوا عن اعترافهم بالجميل لمن يتحملون المسؤولية عن الأمور الصحية للالتزامهم مجدداً بالرعاية الصحية الأولية. لأنها أهدى طريق نحو تحقيق المزيد من العدالة والإنصاف فيما يتعلق بالتنعم بالرعاية الصحية.

ويمكن لدوائر الصحة العمومية أن تعرب عن امتنانهما للدعم الذي تلقتته من قِبَل اللجنة المعنية بالمحددات الاجتماعية للصحة. وأنا أوافق تماماً على النتائج التي تم الخلوص إليها. والفوارق الضخمة في الحاصلات الصحية ليست اعتباطية. كما أن معظم اللوم فيما يخص الطريقة التي يعمل بها عالمنا، وهي طريقة ظالمة، أساساً، يقع على مستوى السياسة العامة.

وكثيراً ما تكون الصحة قضية هامشية عند بلورة السياسات العامة التي تحكم هذا العالم. وعندما تتضارب السياسات الصحية مع آفاق الربح الاقتصادي فإن المصالح الاقتصادية تبرز المشاغل الصحية المرة تلو الأخرى. كما أن الصحة تتحمل، مراراً وتكراراً، وزر السياسات القصيرة النظر والضيقة العطف التي تتخذ في سائر القطاعات.

إن للإنصاف وزنه في المسائل الصحية، وله وزنه في الأمور التي تتعلق بالحياة والموت. ولقد لقننا الأيدز والعدوى بفيروسه هذا الدرس بأكثر الطرق الملموسة المحسوسة.

وإننا لنرى الآن كيف أن الإنصاف يعني الكثير عندما تحل الأزمات.

حضرات السيدات والسادة،

إن العالم يواجه أزمات متعددة على جبهات متعددة.

فقد تفتق عالمنا غير المثالي، في العام الماضي تبعاً وبشكل سريع، عن أزمة وقود وأزمة غذاء وأزمة مالية. كما أثبت بشكل دامغ أن الأثر الناجم عن تغير المناخ قد أسىء تقديره بشكل خطير.

وتأتي هذه الأزمات في وقت يتزايد فيه اعتماد الأمم على بعضها البعض على نحو لا يمكن بثه كما يتزايد فيه اعتماد أسواقها المالية واقتصاداتها ونظمها التجارية على بعضها البعض. وكل هذه الأزمات عالمية النطاق كما أن جميعها سيطاً بأقدامه البلدان النامية والفئات السكانية المستضعفة وسيكون وقع تلك الأقدام موجعاً. كما أن كل الأزمات يهدد بأن يترك توازن هذا العالم أكثر انحرافاً بشكل خطير للغاية.

إن جميع هذه الأزمات سيميط اللثام عن عقود من الفشل في الاستثمار في النظم الصحية وعقود من الفشل في دراسة أهمية الإنصاف والعدالة، وعقود من الإيمان الأعمى بأن تحقيق النمو الاقتصادي البحث هو غاية كل شيء ونهاية كل شيء وأنه شفاء كل الأدواء.

وليس الأمر كذلك.

إن عواقب السياسات المعيبة لا تعرف أي رحمة ولا تعرف أي استثناءات على أساس "احترام قواعد اللعبة". وكما رأينا، فإن شرر الأزمة المالية قد تطاير وانتقل من بلد إلى آخر ومن قطاع اقتصادي إلى الكثير من القطاعات الأخرى.

بل إن البلدان التي أدارت اقتصاداتها بشكل جيد، ولم تنتشر أصولاً مسمومة ولم تتعرض لمخاطر مالية مشطة تعاني بدورها من العواقب، وبالمثل فإن البلدان التي لم تسهم إلا بالقليل من انبعاثات غازات الدفيئة هي أول البلدان التي ستتأثر بشدة الأثر بتغير المناخ.

أما الآن فإننا نرى عدوى عالمية عظيمة على أعقاب أبوابنا: هذه العدوى هي احتمال اندلاع أول أنفلونزا جائحة في هذا القرن.

حضرات السيدات والسادة،

لقد هيأت فاشيات أنفلونزا الطيور الناجمة عن الفيروس H5N1 الشديد الأمراض، لدى الدواجن والحالات التي ظهرت منه بين البشر والتي أدت إلى الوفاة بين الفينة والأخرى، العالم على مدى خمسة أعوام طويلة لتوقع حدوث جائحة أنفلونزا بل حدوث جائحة جد مميته. ونتيجة لهذه التهيئة التي دامت تلك الأعوام الطويلة فإن العالم قد تهيأ بشكل أفضل ولكنه مرعوب منها.

وكما نعلم الآن فإن فيروساً جديداً من فيروسات الأنفلونزا ذا إمكانيات هائلة لإحداث جائحة هو الفيروس الجديد من السلالة A(H1N1) ظهر من مصدر آخر في جانب آخر من العالم.

والفيروس الجديد ينتقل بسهولة شديدة على خلاف فيروس الطيور، من إنسان إلى آخر وينتشر بسرعة إذا ما استحكم داخل البلد الواحد وهو ينتقل بسرعة الآن إلى بلدان جديدة. وإننا نتوقع أن يستمر هذا النمط.

وعلى خلاف فيروس أنفلونزا الطيور، فإن الفيروس H1N1 يسبب الآن، أساساً، وعكة متوسطة الخطورة. كما أنه لم يؤد إلا إلى عدد قليل من الوفيات فيما عدا الفاشية التي حدثت في المكسيك. ونحن نأمل أن يستمر هذا النمط.

والأمراض الجديدة، هي اصطلاحاً، أمراض قليلة فهمها عندما تظهر وهذا يصدق بجلاء عندما يكون العامل المسبب أحد فيروسات الأنفلونزا.

وفيروسات الأنفلونزا عبارة عن هدف متحول بامتياز كما أن سلوكها لا يمكن التكهن به بحال من الأحوال. وبالمثل فإن سلوك الجوائح هو الآخر لا يمكن التكهن به أسوة بالفيروسات التي تسببها. ولا قبل للمرء بأن يتنبأ بما ستؤول إليه الأوضاع.

إن ظهور الفيروس H1N1 يضع ضغوطاً هائلة على الحكومات وعلى وزارات الصحة وعلى منظمة الصحة العالمية من أجل اتخاذ القرارات الصائبة واتخاذ الإجراءات الصحيحة في وقت لا يوجد فيه الكثير من اليقين العلمي.

ولقد عمدت، في ٢٩ نيسان/ أبريل، إلى رفع مستوى التيقظ حيال الأنفلونزا الجائحة من المرحلة الرابعة إلى المرحلة الخامسة ونحن اليوم لانزال في المرحلة الخامسة.

إلا أن هذه الفيروس قد يكون مَنَحًا مهلة إلا أننا لا نعرف كم ستستغرق تلك المهلة. ولا أحد يعرف ما إذا كان هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة أم لا.

إن وجود الفيروس قد تأكد الآن في عدة بلدان في نصف الكرة الأرضية الجنوبي حيث ستبدأ أوبئة الأنفلونزا الموسمية دورتها من جديد عما قريب. وهناك من الأسباب ما يدعونا إلى الشعور بالقلق إزاء تفاعلات الفيروس الجديد H1N1 مع غيره من الفيروسات التي تدور الآن بين آدميين.

وعلاوة على ذلك يجب علينا ألا ننسى أن فيروس أنفلونزا الطيور H5N1 مستحكم في الدواجن في عدة بلدان. ولا أحد يعرف كيف سيكون سلوك هذا الفيروس الطيري تحت ضغط الأعداد الهائلة من الناس المصابين بعدوى الفيروس الجديد H1N1.

حضرات السيدات والسادة،

إن الانتقال إلى المرحلة الخامسة قد أدى إلى تصعيد عدد من تدابير التأهب. وبذا فإن خدمات الصحة العمومية والمختبرات وموظفي منظمة الصحة العالمية ودوائر الصناعة يعملون الآن على مدار الساعة.

ومن السمات التي تسم الجائحة، اصطلاحاً، هي تعرض جميع سكان العالم، تقريباً، للإصابة بالعدوى. ولن تظال العدوى كل الناس إلا أن كل الناس معرضون لمخاطر العدوى.

وطاقة إنتاج الأدوية المضادة للفيروسات ولقاحات الأنفلونزا طاقة محدودة ولا تكفي لعالم تعداده ٦,٨ مليار نسمة. وعليه فإن من الأساسي جداً ألا تهدر البلدان هذه الموارد الثمينة من خلال اتخاذ تدابير هزيلة التركيز.

وكما سمعتم صباح هذا اليوم فإننا نحاول الحصول على بعض الأجوبة على عدد من الأسئلة، ومن شأن تلك الأجوبة أن تعزز من تقييم المخاطر المحتملة وأن تسمح لي بتزويد الحكومات بنصائح أكثر دقة. وستتاح لنا، من الناحية المثالية، وفي القريب، المعارف الكافية لنصح البلدان فيما يتعلق بالفئات العالية الاختطار والتوصية بتركيز الجهود والموارد على تلك الفئات.

لقد أصغيت بعناية إلى ما أبدتموه من تعليقات هذا الصباح. وسوف أتبع تعليماتكم بدقة بصفتي كبيرة الموظفين التقنيين في المنظمة، ولأسيما فيما يتعلق بمعايير الانتقال إلى المرحلة ٦، وذلك في إطار أدائي لواجباتي ومسؤولياتي أمام الدول الأعضاء.

وإذا كانت الكثير من الأسئلة لا تجد لها إجابات أكيدة في الوقت الحاضر فإن باستطاعتي أن أطمئنكم عن مسألة واحدة، ألا وهي أن منظمة الصحة العالمية تبادر عند تلقيها معلومات ذات أهمية من شأنها إنقاذ الأرواح، كما يحدث، مثلاً، عند تعاطم مخاطر حدوث مضاعفات لدى الحوامل، إلى تحذير الأسرة الدولية في هذا الصدد.

ولقد حدث معظم الفاشيات، حتى الآن، في بلدان تمتلك قدرات جيدة في مجالي الاكتشاف والتبليغ. ودعوني أعتنم هذه الفرصة لأن أتوجه بالشكر لحكومات تلك البلدان لاجتهادها في الاضطلاع بأنشطة الترصد وللشفافية التي انتهجتها في مجال التبليغ وللكرم الذي تحلت به فيما يتعلق بتقاسم المعلومات وتبادل الفيروسات.

إن حدوث جائحة من جوائح الأنفلونزا إنما هو مناسبة شاذة للإعراب عن التكافل أمام خطر يدهم الجميع. وإننا لسعداء الحظ إذ أن الفاشيات التي تحدث إنما تسبب أساساً، حالات مرضية معتدلة في هذه الأيام.

وإنني لأحث الأسرة الدولية بقوة على أن تستغل هذه المهلة بحكمة. كما أحثكم بقوة على النظر عن كثر إلى كل شيء وإلى كل ما نقوم به، جماعياً، لحماية البلدان النامية، مرة أخرى، من تحمل وزر عدوى عالمية النطاق.

ولقد تواصلت في هذا الصدد مع شركات إنتاج الأدوية المضادة للفيروسات واللقاحات. كما تواصلت مع الدول الأعضاء والبلدان المانحة ووكالات الأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية والمؤسسات.

وأكدت لها على الحاجة المطلقة إلى توسيع نطاق تدابير التأهب للجائحة والتخفيف من وطأتها ليشمل العالم النامي. وقد انضم الأمين العام للأمم المتحدة إلىّ في بذل هذه الجهود التي لا تكل ولا تمل.

حضرات السيدات والسادة،

كما قلت لكم فإن الإنصاف في المجال الصحي له دلالة فيها الحد بين الموت والحياة. وهو له دلالة خاصة عند نزول الأزمات والملمات.

وإن عالمنا اليوم أكثر تأثراً بالآثار الضائرة التي تتجم عن وقوع جائحة من جوائح الأنفلونزا منه في عام ١٩٦٨ عندما بدأت آخر جائحة من الجوائح التي حدثت في القرن الماضي.

فقد تسارعت وتيرة وحجم الأسفار الدولية وبلغت درجة مذهلة. وكما نرى الآن ما يحدث نتيجة الفيروس H1N1 فإن كل مدينة تمتلك مطاراً دولياً معرضة لمخاطر استقبال حالة وافدة. كما أن ترابط البلدان الذي تزايد بشكل جذري يضخم من احتمالات تعطل دولاب الاقتصاد.

وفيما عدا الدواعي الأخلاقية المطلقة فإن اتجاهات مثل الاستعانة بمصادر خارجية والإنتاج في الوقت المناسب تضطر الأسرة الدولية إلى التأكد من عدم معاناة أي جزء من أجزاء العالم بشكل مفرط في هذا المضمار. وعلينا أن نعنتي بمسألة الإنصاف والعدالة وعلينا أن نعنتي أيضاً بمسألة عدالة قواعد اللعبة.

وإمكانية التعرض للحالات الوافدة ولتعطل الاقتصادات والأعمال تؤثر في جميع البلدان. ولسوء الطالع أن إمكانيات التعرض الأخرى، تتركز بشكل مفرط في العالم النامي.

وتشير البيانات المتاحة إلى أن معظم حالات العدوى الوخيمة والمميتة الناجمة عن الإصابة بالفيروس H1N1، عدا الفاشية التي حدثت في المكسيك، تحدث بين أناس مصابين بأمراض مزمنة دفيئة. وقد ازداد عبء الأمراض المزمنة، في السنوات القليلة الماضية، على نحو درامي وانتقل، أيضاً على نحو درامي، من البلدان الغنية إلى البلدان الفقيرة.

ويتركز حوالي ٨٥٪ من عبء الأمراض المزمنة، اليوم، في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل. وما يخلفه هذا الأمر شيء واضح لا مرية فيه. ذلك أن العالم النامي يعيش فيه أكبر مجموعة من الناس الذين هم عرضة للمخاطر فيما يتعلق بالإصابة بأنواع الإصابة الوخيمة والمميتة الناجمة عن الفيروس H1N1.

ومن السمات الملفتة لبعض الفاشيات الحالية مصاحبة الإسهال أو القيء لما يصل إلى ٢٥٪ من الحالات، وهذا الأمر لم يعهد من قبل.

وإذا تم اكتشاف طرح الفيروس في السوائل البرازية فإن هذا الأمر يضيف طريفاً آخر من طرق السراية. والدلالة في هذا الصدد تكون عظيمة بشكل خاص في المناطق التي لا توجد فيها مرافق إصحاح ملائمة كما هو الحال في مدن الصفيح الحضرية المكتظة.

إن الجائحة القادمة ستكون أول جائحة تحدث منذ ظهور الأيدز والعدوى بفيروسه وعودة السل إلى الظهور بأشكاله المقاومة للأدوية كذلك. وهناك في عالم اليوم الملايين من الناس الذين تعتمد حياتهم على إمدادات الأدوية المنتظمة وعلى الوصول بانتظام إلى الخدمات الصحية.

ومعظم هؤلاء الناس يعيشون في بلدان تعاني نظمها الصحية من الإرهاق أصلاً كما تعاني من قلة العاملين ومن قلة الأموال المرصودة. ومن المتوقع أن تزيد أزمة المالية من العبء وتفاقمه مع امتناع المزيد من الناس عن طلب خدمات الرعاية الخاصة والتوجه إلى الخدمات التي يمولها القطاع العام.

ما الذي سيحدث إذا دفعت أعداد متعاظمة من الناس الذين يحتاجون إلى خدمات الرعاية في مجال الأنفلونزا فجأة الخدمات الصحية الهشة بالفعل إلى الهاوية؟ وما الذي سيحدث إذا شاهد العالم نهاية جائحة الأنفلونزا ليرى نفسه فقط في مواجهة مع وباء السل الشديد المقاومة للأدوية، مثلاً؟

إن لدينا من الأسباب الوجيهة ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الفيروس الجديد يعرض النساء الحوامل إلى مخاطر متعاظمة فيما يتعلق بالإصابة بالعدوى الوخيمة أو المميتة. وعلينا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال. هل سيؤدي انتشار الفيروس H1N1 إلى رفع مستويات وفيات الأمومة وهي مستويات لا يمكن القبول بها بحال من الأحوال أصلاً، وهي أيضاً مستويات ذات علاقة وثيقة بضعف النظم الصحية؟

حضرات السيدات والسادة،

في خضم كل الشكوك والريب التي تراودنا هناك شيء مؤكد هو أنه عندما يتسبب عامل مُعد في حدوث طارئة صحية عمومية عالمية فإن الصحة تصبح قضية مركزية لا هامشية. وهي بذلك تنتقل إلى مكان الصدارة رأساً.

إن العالم قلق حيال احتمال حدوث جائحة من جوائح الأنفلونزا ويحق له أن يقلق. وقد تم اختزال مدة انعقاد جمعية الصحة هذه لسبب وجيه. هو أن المسؤولين الصحيين هم في الوقت الحاضر أفراد من الأهمية يمكن بحيث لا يجوز لهم أن يكونوا بعيداً عن أوطانهم لمدة تزيد على بضعة أيام.

وإننا نمتلك الكثير في أيدينا. كما أن الكيفية التي ندير بها هذا الوضع يمكن أن تكون حالة من حالات الاستثمار لصالح الصحة العمومية.

إن العالم سيكون في منزلة المراقب، ومما لا شك فيه أن هناك سؤالاً كبيراً واحداً سي طرح. هل أن خدمات الصحة العمومية في العالم ستكون على مستوى الحدث في الظروف التي تسود القرن الحادي والعشرين وهي ظروف لا تخلو من تحديات؟ إنها بالطبع لن تكون كذلك. وأرى أن العواقب ستكون ظاهرة للعيان بسرعة وبشدة وبشكل مأسوي. والآن علينا أن نطرح السؤال الثاني: هل سنفلح شيئاً في نهاية المطاف؟

إننا لا نستطيع، في الوقت ذاته، ولا نجرؤ أن نترك المخاوف التي تنتابنا حيال الجائحة تلقي بظلالها على سائر البرامج الصحية الحيوية أو تعطل مسيرتها. والواقع أن العديد من القضايا التي سنتصدون لمعالجتها هذا الأسبوع أو التي تم التصدي لها في الدورات القليلة الماضية، تتعلق، تحديداً، بالقدرات التي ستمس إليها الحاجة إذا حدثت جائحة ما أو وقعت طارئة ما من طوارئ الصحة العمومية تسبب قلقاً دولياً.

إن قطاع الصحة لا يمكن أن يُلام لقلّة تبصره لأننا نعلم، منذ أمد بعيد، ما تمس إليه الحاجة.

وإن الاستجابة الفعالة في مجال الصحة العمومية، لتعتمد على قوة النظم الصحية التي لا تقصي ولا تستبعد أحداً والتي تتيح للجميع بمن فيهم من يوجدون في المجتمعات المحلية فرصة الحصول على الخدمات. وهي تعتمد كذلك على توافر الأعداد الكافية من العاملين المدربين على النحو الملائم والذين يملكون الحوافز التي تشجعهم على العطاء والذين يحصلون على التعويض المناسب.

إنها تعتمد على عدالة الوصول إلى المنتجات الطبية الميسورة التكلفة وإلى سائر التدخلات. وجميع هذه البنود مدرجة في جدول أعمالكم. وإنني لأحتكم، على وجه الخصوص، على إنجاز الأعمال المدرجة في إطار البند الخاص بالصحة العمومية والابتكار والملكية الفكرية ذلك أننا قاب قوسين أو أدنى من الإنجاز.

إن اللوائح الصحية الدولية، وهي أيضاً مدرجة في جدول أعمالكم، تعطي قطاع الصحة ميزة لم يكن الإداريون الماليون يمتلكونها عندما اندلعت الأزمة في العام الماضي وعندما زجت بنا السياسات الخاطئة في أتون أزمة اقتصادية عالمية. واللوائح الصحية الدولية توفر آلية منسقة للإنذار المبكر ونظاماً محكماً لتقييم المخاطر المحتملة يخضع للأدلة العلمية وليس للمصالح الأنانية.

وعليّ أن أذكر حضراتكم بأننا نحتاج إلى إنجاز عملنا في مجال استئصال شلل الأطفال مستهدين في ذلك بالتقييم المستقل الجاري. وعليّ أن أذكركم أيضاً بأن هذا العمل يعود بالفعل بفوائد ملموسة ونحن على طريق بلوغ هدف تخليص العالم من مرض مدمر.

أما اليوم فإن شبكات الترصد الواسعة والبنى التحتية التي أقيمت من أجل استئصال شلل الأطفال تستخدم لتتبع وتيرة ترصد حالات الإصابة بالفيروس H1N1 وخاصة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وشبه القارة الآسيوية.

كما أن الميزانية البرمجية المقترحة هي من البنود المدرجة في جدول أعمالكم. ومنظمة الصحة العالمية على استعداد لتوجيه الاستجابة لطائرة من طوارئ الصحة العمومية العالمية. والجدير بالذكر أن الخدمات التي نقدمها في عدة مجالات خدمات مجهدة غير أننا نواجه الوضع القائم. ونحن بحاجة إلى طمأننتنا بأن باستطاعتنا أن نعمل على ما يرام وخاصة عند تقادم الطائرة.

حضرات السيدات والسادة،

إن لي تعليق نهائي سأيديه.

إن فيروسات الأنفلونزا تحظى بميزة كبرى ألا وهي ميزة المفاجأة. غير أن الفيروسات ليست ذكية بل نحن أذكى.

إن مستويات التأهب، ومستويات الدراية التقنية والعلمية التي ترفد مستويات التأهب قد خطت خطوات هائلة إلى الأمام منذ عام ١٩٦٨. ونحن نمثل اللوائح الصحية الدولية المنقحة وقد وضعنا موضع الاختبار آليات متينة مثل الشبكة العالمية للإنذار بحدوث الفاشيات والاستجابة لمقتضياتها.

وكما أسلفت فإن جائحة الأنفلونزا إنما هي مناسبة شاذة للإعراب عن التكافل العالمي. وإنما في هذا المضمار في خندق واحد. وسنجتاز هذه المحنة مجتمعين.

وشكراً لكم.

= = =